

www.shabcenter.ly
info@shabcenter.ly

مركز الشيخ علي الغرياني للكتاب
Sheikh Ali Al-Gharyani Book Center



مقال

أبي دور للإعلام في الاستلاب الثقافي؟

أزهير عطوف

أي دور للإعلام في الاستلاب الثقافي؟

إن التسارع والتطور الإعلامي والتكنولوجي الذي يشهده العالم، أثر على المجتمعات بما فيها المجتمع العربي لتظهر مع هذا التطور ظاهرة الاستلاب الثقافي كمظهر من مظاهر انتشار الثقافة الغربية المهيمنة وسط المجتمع العربي والإسلامي.

إن الاستلاب الثقافي يجعلنا نستشف مدى أهمية التشبث بالهوية الثقافية، في مقابل إدراك خطورة الاستلاب الثقافي والتيه في ثقافة الآخر. وبالتالي يجعلنا نفكر في تنمية الثقافة في عصر العولمة وقوة الماكينة الإعلامية المسيطرة، وذلك باعتبارها مقوما مهما لا بد من مراعاته في بناء فلسفة توجيه الأفكار عند المجتمع العربي عامة وشبابه خاصة، وذلك للحيلولة دون الوقوع في دائرة الاستلاب الثقافي.

الفرق بين الثقافة والحضارة:

قبل أن ندخل إلى صلب الموضوع لا بد أن نشير إلى نقطة غاية في الأهمية تتمثل في أهمية التفريق بين الحضارة والثقافة، لكيلا يختلط علينا الأمر في الموضوع الذي سنتطرق إليه. وفي هذا الإطار لا يعد مفهوم الحضارة اليوم مفهوماً حديثاً، إنما هو مفهوم ضارب في القدم منذ تاريخ وجود الإنسان على هذه الأرض، إذ لا حضارة بلا إنسان، ولا إنسان من غير تاريخ، ولا وجود لحضارة لا تنتمي لتاريخ، حيث إن الحضارة جزء من التاريخ، ولكل حضارة تاريخها المحدد، ولكل إنسان حضارته. كما تعد الحضارة الوجه الآخر للإنسان، وبها يظهر مقدار قوته، وضعفه، وتقدمه.

إن الحضارة إرث الإنسان المادي والمعنوي الذي خلفه في الماضي، والذي

اعتمد عليه الإنسان لإكمال مسيرة حياته وتقدمه الحالي، سواء أكانت مظاهر معنوية كأسلوب الحياة، والمعيشة اليومية، والعلوم، والمعارف، أو أدوات ووسائل مادية بقيت أثراً لوجوده كالبنيان، والمسكوكات، والأعمال اليدوية المختلفة، مثل الخزف، والفخار، وغيرها.

ومن أهم الأسماء التي تطرقت الى تعريف الحضارة يوجد الأنثروبولوجي البريطاني إدوارد تايلور «Edward Tylor» الذي عرف الحضارة بأنها: «المركب الذي يجمع بداخله جميع المعتقدات، والقيم، والتقاليد، والقوانين، والمعلومات، والفنون، وأي عادات، أو سلوكيات، أو إمكانات، يمكن أن يحصل عليها فرد ما في مجتمع ما». بمعنى آخر فإن الحضارة هي مجموع ما أنتجته أمة من الأمم في مرحلة معينة من التاريخ من انتاجات مادية وغير مادية تميزت بها عن غيرها من الأمم وانتقلت بها البشرية إلى درجة من درجات التمكن الحضاري والمدني.

أما الثقافة فيمكن تعريفها بشكل عام على أنها المعطيات والمفاهيم التي أتت بها الاعتقاد الديني الذي يغلب على مجتمع ما، سواء كان ذلك الدين سماوياً أو غير سماوي، حيث تشكل هذه المعطيات والمفاهيم الجوانب الخفية من الثقافة مثل الأمور الانفعالية والمجالات الروحية.

ويشير هنا المفكر المغربي أبو زيد الإدريسي لأمر غاية في الأهمية يتمثل في التفريق بين الثقافة والحضارة، وأنه لا بد من التفريق بين ما يقبل النقل وما لا يقبل النقل. وانطلاقاً من ذلك نستطيع ان نسمي الحضارة، الإنجاز المادي للبشرية وهو بذلك قابل للانتقال والتداول والنقل والاستهلاك والتطوير والترجمة في حين الذي لا يقبل النقل هو الثقافة، ونقله يؤدي الى موت الحضارة لأنه يؤدي الى اغتراب، وهجانه، واستلاب، وهزيمة نفسية، ويؤدي ايضاً الى نوع من الارتباك في البوصلة والضمير الثقافي للامة.

اذن ما لا ينقل هو الثقافة وإذا نقل يكون نقله وبالا لأن الثقافة مربوطة بالعقيدة وبالخصوصية وبالجوانب الروحية وبالعالم الغيب، وبالتصور الذي يتصوره شعب من الشعوب أو أمة من الأمم. وبالمقابل ما ينقل هو الحضارة وإذا نقل يكون نقله تلاقحاً وازدهاراً وتقدماً مثل الجوانب المادية كالرياضيات والفيزياء والفلك والنجارة والبناء والحدادة، بحيث يقال في هذا الصدد ان هذه الجوانب المادية التي تمثل الحضارة لا دين لها.

مفهوم الاستلاب الثقافي:

يستعمل الاستلاب الثقافي لتوصيف علاقة التبادل الثقافي بيننا وبين الغرب، وذلك للدلالة على حالة التبعية الثقافية للغرب ونقد الاتجاه الذي يقلد الغرب. وفي السياق ذاته يأخذ مفهوم الاستلاب الثقافي طابع التضاد مع الخصوصية الثقافية، ففعل الاستلاب يكون بهيمنة نموذج ثقافي مسيطر يمتلك مقومات القوة، تجاه ثقافة ينتابها الضعف ليس لأنها تخرج عن الإطار التاريخي والمرجعية التراثية، بل لأنها تتعرض لقطيعة مع السيرورة التاريخية.

ظاهرة الاستلاب الثقافي تعتبر مظهرا من مظاهر العولمة وتحوي في طياتها مظاهر الاستقطاب والتبعية والتغريب، وفي نفس الوقت هي تعبير عن المآل المحتوم لما سيكون عليه حال المجتمع الفاقد لهويته الثقافية. وفي هذا السياق تطرح قضية الخصوصية الثقافية في مقابل التبعية للآخر وبالتالي فقدان الهوية وتشكل إطار هوياتي جديد يعمل على إعادة صياغة المفاهيم والأفكار لاسيما عند الشباب.

تعد الخصوصية الثقافية أهم رافد من روافد الهوية لأي مجتمع كان، وباعتبار التغيرات الحاصلة في العالم التي أصبحت ذات طابع شمولي تشهده كل المناحي السياسية والمعرفية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، فإن المجتمع العربي ليس في منأى عن هذه التحولات لا سيما فئة الشباب.

دور الإعلام في الاستلاب الثقافي:

يلعب الإعلام دورا مهما في الاستلاب الثقافي عند المجتمع العربي، وما يقدمه هذا الاعلام من تصوير وعرض ومونتاج ودراما مبهرة يجعل منه عاملا مهما في التأثير لاسيما على الشباب وإعادة توجيه فكره ومعتقده الثقافي، وعلى سبيل المثال لا الحصر الأفلام والمسلسلات المدبلجة الأمريكية والمكسيكية والتركية والكورية وغيرها، استطاعت التلاعب بعقول الكثير من الأسر العربية والإسلامية. ولأن التأثير النفسي والسيكولوجي لوسائل الإعلام أصبح يمثل اليد العليا في صنع الرأي العام وتسويقه وصبغ الشرعية الشعبية عليه، فقد أصبح الناس في الدول العربية يقبلون بهذه الثقافة، والتي تؤدي في كثير من الأحيان الى اثار كارثية على

الشعوب .

وقد نجح الإعلام في تمرير أجندة خفية لاشعورية والتلاعب بالكثير من أفكار ومعتقدات المشاهد ليحوله من مشاهد متلق إلى مستلب ناغم على مجتمعه رافض لموروثاته الثقافية والفكرية. وتبدأ عملية الاستلاب الثقافي بقيام الإعلام بما يملكه من سطوة وقدرة على غسل الأدمغة وإفراغها من كيانهما الثقافي المكتسب والمتراكم عبر سنوات الخبرة الاجتماعية، تليها موجات متتالية من الحشو والتغذية الذهنية لصالح أفكار وقيم جديدة ووافدة لا تنتمي في الغالب إلى النمط الثقافي المتعارف عليه.

ويقف خلف تدفق المعلومات من قبل الماكينة الإعلامية شركات عملاقة، تصنع وتسوق وتبلور بدورها الرأي العام حول الأمور الثقافية التي تمارس تأثيراً مباشراً وغير مباشر، على الحكومات والمجتمعات، حيث استطاع الغرب بمنظومته الإعلامية الهائلة وأجهزته المتفوقة تسويق ثقافته إلى العالم.

وأمام هذا الوضع فالاستلاب الثقافي يدفع الانسان إلى الرفض أو التمرد أو إنكار موروث أو مجموعة من الموروثات الثقافية القائمة والرغبة في الخلاص منها وتبني ثقافة جديدة في السياق المجتمعي العام. ويرى المستلب أن الحالة الثقافية الراهنة تسبب له حالة من الإزعاج ومصادرة الهوية وتعيق حركة تقدمه، حيث يلجأ إلى مجموعة من الأشخاص يشاطرونه ذات التوجهات الثقافية التي يؤمن بها، وفي حالات أخرى يجذب السفر والانتقال إلى البلد أو الطقس الثقافي الذي يعتبره نموذجاً واجب الاتباع والاقتراد.

ولذلك فإن ظاهرة الاستلاب الثقافي ظاهرة لها أثارها السلبية والخطيرة على القيم والعلاقات الاجتماعية، مما يجعل الأمن الاجتماعي محل استهداف، ويفقد البناء القيمي تماسكه ويؤدي به إلى الانهيار، لهذا فإن الحفاظ على الهوية الثقافية أصبح التحدي المطروح علينا بشدة في عصر الرقمي التي يكتظ بالأقمار الصناعية التي تحمل مئات والآلاف القنوات التلفزيونية من كل انحاء العالم بما تنطوي عليه من تأثيرات مختلفة تشكل وجدان الشباب، مما تجعل الشباب اليوم يعاني من اضطراب في النسق القيمي.

في المحصلة لا يمكن حصر عامل محدد يمكن القول إنه السبب المباشر الذي يقف وراء حالة الاستلاب الثقافي التي تعيشها الكثير من الأسر العربية والإسلامية، إلا أنه يمكن تعليل هذه الظاهرة إلى نزوع الكثير من الأسر للتقليد غير المتعقل والرغبة في المباهاة الجوفاء التي تحمل في طياتها حالة من العجز والإحباط وضعف الشخصية أمام المتغيرات الاجتماعية والظواهر الوافدة.

إن عملية الاستلاب الثقافي هي عملية لها تبعاتها وأبعادها على المجتمع العربي عموماً وفئة الشباب خصوصاً، لذا إن من شأن الوعي المجتمعي بخطورة الاستلاب، أن يمارس دوره في خلق الممانعة للمجتمع بمختلف فئاته، وتكوين هوية ثقافية ذات بناء متشبع بالقيم والأخلاق المستمدة من فلسفة المجتمع الحقيقية.